يوئيل وكيس الشعب

قصة بقلم نمر محمد سرحان

كان ابو هاشم يركب أتانه البيضاء في صباح باكر من يوم صيفي في طريقه الى مستعمرة بنيامينا حيث اعتاد ان يذهب كل صباح ليشتغل في كرم العمدة عنكل طوال يومه ، وعرج في طريقه على « عين الميتة » التي كانت تنزف ماء الارض الرقراق وتدفعه الى نهر صغير تعانقه شتى الاعشاب .. ونزل عن أتانه لتشرب من تلك العين التي انفجرت في سطح الارض وفي سهل فسيح .. ثم عاد يركب اتانه ميمما شطر الغرب وقد هب نسيم البحر اللطيف محملا بروائح الليمون والبرتقال .. واخذت أتانه تنهب الطريق المنبسط الطويل بين « عين الميتة » ومستعمرة بنيامينا مخترقة سهول الذرة الافرنجية .

ومع اشعة شمس الصباح التي تخطت رأس ابي هاشم وعكست ظله وظل حقول الذرة الى الغرب عادت به الذاكرة الى بضع سنين خلت يوم كان السكان العرب لايستطيعون استنبات قمح المؤونة منها وكيف ان السماسرة رددوا على مسامعهم بان هذه الارض « استبيعت » وقد اصبحت لا فائدة منها .. وعاد بذاكرته الى مهزلة بيعها التي قام بها « الشيخ محمد » فأخذ الورثة الى حيفا وجعلهم يوقعون متنازلين عنها ، ولم ينل الواحد منهم سوى ركوب القطار والعشاء والمنام في فندق متواضع ثم العودة بالقطار !

واخذت عيناه تطوفان بالسهل الواسع وتنحسران على الكنوز التي لم يستطع اجداده استنباطها من باطن هذه الارض وهي الان لقمة سائغة للكفار .. كما كان يحلو له ان ينظر اليهم من هذه الزاوية ، وخرج من السهل الفسيح متخطيا سكة الحديد وهو يعبر مشارف مستعمرة بنيامينا المستلقية في قلب السهل والتي يعوي بها صفير القطار طوال الليل والنهار ، واجتاز الشارع المعبد العريض الذي يصل حيفا بالجنوب واخترق المستعمرة مارا الى الزاوية الغربية الشمالية حيث يقع كرم العمدة عنكل .

وبباب الكرم نزل عن أتانه وفتح قفل الباب الخشبي بمفتاحه الخاص وساق أتانه الى الداخل بعد ان ربطها بحبل طويل الى اصل شجرة غير مثمرة وتركها ترعى بينما ذهب هو الى المخزن الواقع في نهاية الكرم ليحضر « العدة » ويبدأ كفاحه اليومي .. وارتفعت شمس شارون في وسط السماء لتضيء سهول الذرة المترامية الاطراف وتعكس اشعتها على عين الميتة وبساتين التين والنهر الصغير الذي ينثر الخير والعطاء في ارجاء تلك الجنة الكبيرة .. وخرجت راحيل ابنة العمدة عنكل تتثاءب في الشرفة الفخمة في ثوب بيتي داعر يكشف اكثر مما يستر واستلقت في كرسي الاستراحة المقوس وهي تستمع الى جهاز الراديو الصغير تاركة جسدها اللدن يعبث بنسيم الصباح ..

وابتعد ابو هاشم مشيحا وجهه عن العاهرة وهو يمعن في عمله يسقي ويحضر الاقنية وهو يهمهم باغنية شمالية من اغاني « الروحة » الدارجة ، وسمعته راحيل فاقفلت جهاز الراديو وجاءت اليه تحييه بعربية مكسرة وترجوه ان يغني لها ... وهي تؤكد له انها تحب اغاني العرب .. وغنى لها ابو هاشم وقد جلست امامه تحت شجرة كبيرة ودفنت خديها بكلتا راحتيها .. وتدحرجت الدموع على خدي راحيل العاجيتين وهي تستمع للاغنية العربية الحنونة ... ثم اخذت تقص قصتها وكأنها تتحدث الى نفسها .. لقد روت قصة حبها للشاب اليمني الاسمر الذي كان يأسرها بألحانه العربية وبعزفه المحبب على الربابة التي كان يستنبط منها اعمق الحان الشرق .. وفجأة انتفض ابو هاشم واقفا تاركا راحيل مع دموعها تفكر بالشاب اليمني الاسمر وجحظت عيناه تحدقان بأخيه ابراهيم الذي قدم يجر رجليه جرا وقد نزف الدم من وجهه وتشعث شعره .

وقفز ابو هاشم عن السور الشائك بحركة جنونية راكضا نحو اخيه الذي سرعان ماتهالك جالسا على الارض .

ـ لقد ضربني يوئيل

ـ يوئيل ؟.. اخو عنكل ؟؟

ـ نعم .. لقد مر بي راكبا حصانه وهو يجر كرباج ذنب الفيل وانا اقطع العشب من الارض البور وأملأ الكيس .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ لقد طلب مني ان اترك العشب واخرج من ارضه ولما رفضت ضربني بقسوة بكرباجه ولكز حصانه الى البيت .

واحتقن الدم في وجه ابي هاشم ولم يعد نسيم الصباح ولا شعاع الفجر ولا رائحة البرتقال تثير فيه شيئا وعاد يركض الى الكرم ففز من على السور وتناول الكريك الطويل واستدار يبحث عن يوئيل . ودخل من الباب الاخر المؤدي للدار واندفع الى الباحة الفسيحة المفروشة بالزهور والمرصوفة الطرقات .. فرأى يوئيل واقفا في الشرفة مع راحيل وهو يدخن سيجارة .. والقى يوئيل بسيجارته بالارض عندما رأى أبا هاشم وشد على قبضة يده يستعد لخصمه . وفكر ابو هاشم بانه لايستطيع ان يقاوم العلج الضخم الجثة اذا اشتبك معه ولكن يديه تسمرتا على الكريك الطويل عند مقبضه تاركة الحديدة من الامام ، واستعاد ثقته بنفسه وهو يشد قبضته على الكريك بينما اقترب يوئيل معتدا بضخامته وعضلاته وكأنه ات ليحمل هذا القزم ويلقيه خارجا بيد واحدة . وعاجله ابو هاشم بضربة شديدة بالكريك زاغ منها يوئيل ببراعة ثم عاد لينقض على غريمه ليجرده من سلاحه ثم يحمله ويلقيه بيد واحدة كما هو مصمم ولكن أبا هاشم عاد وهو قابض بالكريك بيديه الاثنتين فأهوى على يوئيل بضربة محكمة نزلت على ذراعه وشرطت سترته الانيقة .. وجن جنون العلج المستهتر بقوة غريمه فحمل قوارا فخاريا والقاه على أبا هاشم ولكن هذا تلقاه بحديدة الكريك بحركة بهلوانية .. وسر ابو هاشم لهذا التحول الذي الت اليه المعركة : هو يضرب بالكريك واليهودي يحاول الوصول اليه مستعينا بالقوارير وكل ماتصل اليه يده لتخلصه من ذلك السلاح الرهيب .. وشن ابو هاشم ضربات موفقة على غريمه اهلكت عضلاته المفتولة لكن يوئيل مازال يحاول ان يمسك بالرجل الذي ظنه قزما لاحول له ولا قوة .. واخذت كفة يوئيل ترجح بفضل عنكل الذي جاء مذعورا يستجلي الامر وقد عاجله ابو هاشم بضربة مسددة على كتفه القته على الارض ولكنه مالبث ان قام وهو يحمل طورية قصيرة أفزعت أبا هاشم فسدد عليها ضربة بحديدة الكريك كسرتها بسرعة .. واضطر ابو هاشم ان يزوغ بين الاشجار وان يستعد لضربات اثنين ويقفز من هنا وهناك وكأنه لاعب سيف ماهر يحارب في جبهتين .. واخيرا جاء ابراهيم وبيده دبسة مسمرة فاشتد العراك ضراوة وان

كان عراكا غير متكافىء ..

ـ لاتدع اليهودي يأسرك ياابراهيم .. اهرب اذا تضايقت ، وهرع رجال الكومتي الذين استنفرتهم راحيل ولم يعد بامكان ابي هاشم وابراهيم الا ان يمهدا لهربهما ويزوغا بين الاشجار وهما يحميان ظهريهما من القوارير وكل الكدر التي تنهال عليهما .. وصرخ ابو هاشم :

ـ ابراهيم .. على مخفر الاضافية .. يلله .. اصح لحالك ..

وقفز ابو هاشم وابراهيم من على السور الشائك بعد ان تكاثر رجال الكومتي الاجلاف بهراواتهم مطاردينهما .. وما كاد الاثنان ينزلان الى الطريق حتى اندفع يوئيل خلف ابي هاشم وهو يهم بضربه برأس الطورية ولكن ابراهيم اهوى بالدبسة على رأس يوئيل فالقاه على الارض وارخى الاخوان سيقانهما يسابقان الريح الى المخفر ..

ونفر رجال المخفر على صوت الجلبة وعاد ابو هاشم يهتف باخيه :

ـ احذر .. ابراهيم .. لاتتركهم يقبضوا عليك .

واحتمى الاثنان في صالة المخفر وتجمع حولهما رجال المخفر بينما تجمهر رجال الكومتي في ساحة المخفر .. واقترب الضابط المنفوخ الوجه من الاخوين وهو يقول ـ مال عربيم ... شو سارقين .. شاويش محمود .. فوتهم

ـ كابتن ميشي .. مش حق .. تحبس اثنين عرب ووراهم الف يهودي .. الشطارة على العرب !!

وارتفع هرج رجال الكومتي وحاولوا اقتحام المخفر مما اضطر ميشي ان يشهر مسدسه وقام باجلاء رجال الكومتي وطردهم بالقوة وامر رجاله ان يبعدوهم حتى البيوت .. الا يوئيل والعمدة عنكل فقد افهما رجال الاضافية بانهما هما اطرف الاخر في النزاع فسمحوا لهما بالدخول.

واستمع الضابط المنفوخ الوجه الى قصة الطرفين والى اصرار ابي هاشم بان يحضر طبيب الحكومة الى المخفر وان يتعهد الضابط بالمحافظة على حياة الاثنين ...

وجاء طبيب الحكومة ليقرر بادانةيوئيل بتقرير طبي لعشرة ايام .. تمهيدا للمحاكمة ..

وخرج ابو هاشم وابراهيم من المخفر بسيارة المخفر لتوصلهما الى قرينهما .. وبينما كان ابراهيم يصعد الى السيارة حدق في يوئيل وهو يقول له : غدا سأعود لأملأ كيس العشب .. فان كنت رجلا فتعال الى هناك !

اربد — نمر محمد سرحان

كتابان خطيران

عارنا في الجزئر : لجان بول سارتر

الجلادون لهنري اليغ

ترجمة عايدة وسهيل ادريس

دار الآداب

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

بيروت

ص.ب ٤١٢٣ ـ تلفون ٣٢٨٣٢

الادارة

شارع سوريا ـ راس الخندق الغميق ، بناية الاسمر

★

الاشتراكات

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة

في الخارج : جنيهان استرلينان
او ٦ دولارات

في اميركا : ١٠ دولارات

في الارجنتين : ١٥٠ ريالا

الاشتراكات الرسمية : ٢٥ ل.ل. او ١٠ يعادلها

تدفع قيمة الاشتراك مقدما

حوالة مصرفية او بريدية

★

الاعلانات

يتفق بشأنها مع الادارة

★

توجه المراسلات الى

مجلة الآداب ، بيروت ص.ب ٤١٢٣